دور الفقهاء والعلماء فى الجهاد

ضد الخطر المغولى على بلاد المسلمين

دكتورة / آسيا سليمان نقلى

كلية التربية للبنات بالرياض

لقد فرض الله تعالى الجهاد على المسلمين فريضة لازمة حازمة ، وجعله يتساوى مع الصلاة والزكاة فى درجة فرضيتهما(١) ، وحذر سبحانه من التخلف عنه(٢) وأوصى بإعداد العُدة له(٣) . ولم تقتصر الدعوة لإعداد العدة على القوة المادية فحسب ، بل شملت أيضاً التعبئة الروحية التى تثبت دعائمهما وتؤتى ثمارها حين يكون الهدف من الجهاد واضحاً جلياً ، وهى كفيلة بأن تجعل الأمة فى جهادها صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص ، لهذا قال تعالى : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾(٤).

ومن ثمَ فقد وجب على إمام المسلمين أو خليفتهم وسلطانهم أن يدعو إلى مجاهدة الأعداء وقتالهم ، وهو المسئول عن هذه الدعوة ، وعلى بقية

---

(١) قال تعالى : ﴿ كُتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ... ﴾ البقرة : ٢١٦ .

(٢) قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله إثاقلتم إلى الأرض ... إلا تنفروا يعذبكم عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴾ التوبة : ٣٨ - ٣٩ .

(٣) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .. ﴾ الأنفال : ٦٠ .

(٤) الصف : ٤ .

المسلمين واجب طاعته وتلبية دعوته . والجهاد واجب مع كل أمير براً كان أم فاجراً ، وحتى وإن كان يعمل الكبائر(١) .

وأولو الأمر من الأمراء والعلماء والفقهاء هم أكثر الناس مسئوليةً عن القيام بأمر الجهاد . ولقد لعبت هذه الفئات ، دون شك ، دوراً كبيراً لا يُستهان به فى الجهاد ضد الخطرين الكبيرين اللذْين تعرض لهما العالم الإسلامى فى العصور الوسطى والشرق الإسلامى على وجه الخصوص ، وهما خطر الحروب الصليبية المتعصبة وخطر الهجمات المغولية المتبربرة المدمرة . وكان لتصدى هؤلاء الصفوة المختارة لهذين العملين الظالْمين أثره الكبير فى الانتصارات العظيمة المتلاحقة لتى حققها قادة المسلمين على القائمين بهما . وبرغم أن مصادر التاريخ الإسلامى نسبت هذه الانتصارات إلى قادة وحكام المسلمين آنذاك وفى الوقت نفسه أغفلت ذكر دور الفقهاء والعلماء فى هذا الواجب المقدس ، إلا من شذرات مبعثرة هنا وهناك . ولماً كان هدف بحثنا هو إبراز هذا الدور القيادى لأولئك الفقهاء والعلماء فى هذه الحروب المقدسة كان علينا جمع هذه الشذرات الخاصة بهذا الدور فى مواجهة الخطر المغولى وإبرازه حتى تتكون لدى القارىء صورة مكتملة عن هذا الدور المشرف فى حلقة من حلقات سلسلة الجهاد الإسلامى ضد أعداء الإسلام .

وقبل أن نخوض فى تتبع دور هؤلاء الصفوة المختارة فى الجهاد ضد المغول ، علينا أن نعرِف تعريفاً مختصراً لهذه الفئة من رجال العلم والفقه .

---

(١) عن حديث رواه أبو داود فى سننه (محمد عزة دروزة : الجهاد فى سبيل الله فى القرآن والحديث ، دمشق ١٩٧٥ ، ص١٣) .

فالعالم ، هو لقب لمن اختص بالعلم ، وإن كان فى الحقيقة من الألقاب المشتركة فى الاصطلاح بين أرباب السيوف (رجال الحرب) وأرباب الأقلام (رجال الإدارة) ، وإن كان المختص به فى الحقيقة العلماء(١) .

وأما الفقيه ، فهو العالم بالشىء والفاهم له ، وقد غلُب ذلك الوصف على العالم بالدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم ، وقد جعله العُرف خاصاً بعلم الشريعة وتخصيصاً بعلم الفروع منها(٢) . ونظراً لأهمية وظيفة الفقيه فى الإسلام فقد ورد فى الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ لابن عباس : " التفقه فى الدين حق على كل مسلم "(٣) . كذلك قوله عليه السلام : " إذا أراد الله بقوم خيراً أكثر فقهاءهم وقللَّ جهالهم ... "(٤) .

وينضم القضاة إلى طائفة الفقهاء والعلماء ، ذلك لأن العلم والتفقه فى أمور الدين شرطان أساسيان لتولى القضاء ، وكل قاضٍ فقيه عالم وليس العكس .

وفى بحثنا هذا سوف نلقى الضوء على طبيعة الدور الذى قام به بعض العلماء والفقهاء والقضاة ضد الغزوة المغولية للعالم الإسلامى ، وكيف أن بعضهم قاتل كجندى مقاتل حمل السلاح وانتظم فى الصفوف الأولى للمجاهدين واستقبل بصدره سهام العدو وحرابه ومنهم من نجى من الموت

(١) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ١٩٨٣ ، جـ٣ ، ص١٩- ٢٠، ابن منظور : لسان العرب ، بيروت ١٩٥٥ ، جـ١٢ ، ص٤١٧ .

(٢) ابن منظور : نفس المصدر ، جـ١٣ ، ص٥٢٢ .

(٣) الخطيب البغدادى : الفقيه والمتفقه ، بيروت ١٩٨٠ ، المجلد الأول ، جـ٢ ، ص٤٤ .

(٤) الخطيب البغدادى : نفس المصدر السابق ، ص٤٢ .

ومنهم من أُستشهد . كذلك فإن بعضاً منهم وقف إلى جانب القادة فى المعارك مرشداً وموجهاً وناصحاً ، بينما جاهدت غالبيتهم بالكلمة فى مجال شحذالهمم بالوعظ والإرشاد والحث عل الجهاد ورفع الروح المعنوية للمجاهدين والمرابطين حتى يثبتوا ويثابروا فى جهادهم للعدو .

ولقد كان أول ظهور للمغول وبداية خطرهم على العالم عامةً والعالم الإسلامى خاصة ، فى أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، حول بحيرة بيكال فى جنوبى سيبيريا الروسية على يد زعيمهم " جنكير خان " (تمرجى ، تموجين)(١) ، ، الذى وحد قبائلهم تحت قيادته وجعل منهم قوة كبيرة وقنبلة موقوتة تهدد بانفجارها مساحات واسعة من العمران فى العالم . ولقد أقام جنكيز خان لنفسه دولة كبيرة تمتد من طرف ماء نهرىْ سيحون وجيحون إلى نهاية الحدود الشرقية ومن صحراء القبجاق إلى نواحى جورجيا(٢) . وكذلك أقام هذا الحاكم المغولى من رجاله جيشاً كبيراً لا حصر لعدده ، ولماً أدرك أنه صار قوياً قويت الرغبة فى نفسه فى توسيع مملكته بالإغارة على جيرانه ، فاتجه إلى بلاد الصين شرقاً وقام بفتحها وضمها إلى مملكته ، ثم اتجه بعد ذلك إلى الفتح غرباً نحو ممالك الإسلام المتواجدة غربى حدود دولته ، وكانت تعانى آنذاك من الضعف والتفكك وسوء الحال .

---

(١) كان جنكيز خان يسمى أولاً باسم " تموجين " وفى بعض المصادر باسم " تمرجى "، بمعنى الصلب المتين بلغة المغول ، ولما عظم شأنه أُطلق عليه اسم جنكيز خان أى إمبراطور البشر جميعاً وتوارى اسمه الأول . وعن مولد جنكيز خان ونسبه انظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، طبعة بيروت ١٩٧٩ ، جـ١٢، ص٣٦١ ، والنويرى : نهاية الأرب ، القاهرة ١٩٨٥ ، جـ٢٧ ، ص٣٠٠ - ٣٠٢ .

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد : المغول فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٠ ، جـ١ ، ص٢٠ .

وكانت الدولة الخوارزمية ، أقرب الممالك الإسلامية إلى بلاد المغول ، وكان على حكمها يومئذ السلطان علاء الدين محمد بن تكش الخوارزمى (خوارزم شاه) ٥٩٦ - ٦١٧هـ/١١٩٩ - ١٢٢٠م . وقد امتدت سلطته إلى معظم بلاد العراق العجمى وسجستان وكرمان وطبرستان وجورجان وبلاد الجبال وفارس وخراسان وجزءً من الهند وجزءً من أفغانستان .

وحدث فى سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م أن قام السلطان علاء الدين خوارزمشاه بتصرف فيه تهور وعدم تقدير للعواقب ، فلقد قدم إلى بلاده بعض تجار المغول ومعهم كمية ضخمة من الفضة النقية (النقرة) والأقمشة والفراء ، فلما وصلوا إلى بلدة أترار ، على نهر سيحون ، قام نائب علاء الدين خوارزمشاه بقتلهم بأمر من علاء الدين ، وسلبهم أموالهم وسلعهم ، فاعتبر جنكيز هذا التصرف إهانة شخصية له ، فأرسل رسولاً من قبله إلى خوارزمشاه يطلب منه تسليمه أموال تجاره الذين قتلوا كما طلب بتسليمه النائب الذى قام بقتلهم ، فما كان من خوارزمشاه إلا أن صعَّد الأمر مع جنكيز خان فقام بقتل رسوله وحلق لحى من معهم وأعادهم إلى جنكيز خان(١) . وبسبب ذلك صمم جنكيز خان على غزو دولة خوارزمشاه لينتقم من السلطان علاء الدين ، وبدأ هجوم المغول على الإسلام الذى حمل معه الوبال الكبير والخراب والدمار لبلاد المسلمين . وقد كان جنكيز خان رجلاً سفاحاً سفاكاً للدماء ، يغزو البلاد بأعداد كبيرة من الجنود كالجراد ، ويقوم بتدمير البلاد

---

(١) علّق النويرى على ذلك بقوله : " فيالها من قتله هدرت دماء الإسلام وأجرت بكل قطرة سيلاً من الدم الحرام " (النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص٢٤١ - ٢٤٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص٣٧ .

التى يغزوها تدميراً كاملاً ويقتل جميع من فيها رجالاً ونساءً وأطفالاً ثم يضرم النيران فيها ويتركها خراباً وأطلالاً(١) .

ونجح جنكيز خان فى القضاء تماماً على الدولة الخوارزمية ، تلك الدولة التى كانت تقف سداً منيعاً يحول بين المغول وبين بقية البلاد الإسلامية فى إيران والعراق والشام ومصر . ولقد قُتل أعداد كبيرة من أهالى هذه الدولة ومن قُدر له البقاء هرب وتشتت إلى بلاد الشام والجزيرة ، وعاشوا هنالك كجنود مرتزقة يخدمون حكام تلك المناطق(٢) .

وبعد القضاء على الدولة الخوارزمية تطلع المغول تحت زعامة " منكو خان " ، الأخ الأكبر للقائد المغولى الكبير هولاكو ، إلى استكمال السير والزحف نحو بلاد المسلمين ، فكلف منكو خان أخاه هولاكو بقيادة جيش المغول والتوجه به لفتح بلاد غربى إيران وبلاد سلاجقة الروم وبلاد العراق والشام ومصر .

وتنفيذاً لأمر منكو خان خرج هولاكو فى ذى الحجة سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م على رأس جيش جرار من مدينة "قراقورم" ، عاصمة دولة المغول ، قاصداً ديار الإسلام حتى وصل إلى مدينة سمرقند - التى كانت عاصمة خوارزمشاه - وقد وصل إليها فى شهر شعبان سنة ٦٥٢هـ/١٢٥٤م ، ونجح فى الاستيلاء عليها وتخريبها وقتل أعداد كبيرة من سكانها .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٣٦٨ - ٣٩٢ .

(٢) كان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل الأيوبى ، قد استعان بهؤلاء الخوارزمية فى استرداد بيت المقدس من يد الصليبيين (حافظ حمدى : الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص٢٥- ٢٧) .

وفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م استطاعت جيوش هولاكو أن تستولى على قلاع وحصون الإسماعيلية فى غربى إيران ، وقد قيل بأنها بلغت حوالى المائة قلعة وحصن أمر هولاكو بتخريبها جميعها ، وبذلك أنهى المغول على حكم الإسماعيلية فى إيران(١) .

وحتى تلك اللحظة كان حكام المسلمين فى حالة لا مبالاة بما يحدث ، ولم يستشعروا بأن الخطر لاحق ومحدق بهم ، فلم يفكروا فى إقامة حلف إسلامى قوى يتصدى للمغول قبل أن يستفحل أمرهم ويزداد خطرهم خاصةً بعدما بلغهم من أسلوب المغول فى التعامل مع أعدائهم المنهزمين منهم والمصير السىء الذين ستصير إليه البلاد والعباد . وفى هذه الأثناء كانت الدولة العباسية قد بلغت أسوأ أحوالها ، وكانت سلطة الخليفة العباسى قد تقلصت تماماً حتى صارت تشمل جزءاً صغيراً من بلاد العراق يمتد من تكريت إلى الفاو ومن حلوان إلى عانة ، أما خارج تلك الرقعة فم تبق له سوى السيادة الروحية الشكلية فحسب(٢) .

المغول وسقوط الخلافة العباسية :

وكان هولاكو أثناء حصاره لقلاع الإسماعيلية وحصونهم قد أرسل إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله(٣) رسولاً يطلب منه أن يرسل له نجدةً من

---

(١) الهمذانى : جامع التواريخ ، القاهرة ١٩٦٠ ، جـ١ ، ص٢٥٣ - ٢٥٩ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ، جـ٤ ، ص١٣٤ .

(٣) هو آخر خلفاء العباسيين ببغداد ، ولُد سنة ٦٠٩هـ ، وقتله هولاكو سنة ٦٥٦هـ ، وكانت مدة خلافته خمسة عشر عاماً وثمانية أشهر وأياماً (السيوطى : تاريخ الخلفاء، القاهرة ١٩٦٩ ، ص٤٦٤ - ٤٧٣) .

الرجال والسلاح ، لكن الخليفة لم يستجب لطلبه بسبب أن أمراءه قالوا له " أن هولاكو رجل ماكر ومخادع وهو ليس محتاجاً لنجدة منا ، ولكن غرضه وهدفه هو إخلاء بغداد من الرجال حتى يتمكن من الاستيلاء بسهولة عليها "(١) ، لهذا غضب هولاكو على الخليفة وحنق عليه .

ولذا بمجرد أن انتهى هولاكو من القضاء على طائفة الإسماعيلية أرسل من مدينة همذان رسالة تهديد ووعيد إلى الخليفة المستعصم ، وكان ذلك سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧م . ولقد اتهم هولاكو الخليفة ، فى رسالته هذه ، بالتستر على العصاة الفارين من وجه هولاكو . وأمره فيها بسرعة الحضور لمقابلته طائعاً خاضعاً وأن يجرد مدينة بغداد من كل سلاحها وعتادها وجميع وسائل الدفاع عنها(٢) .

ولقد رد الخليفة العباسى برسالة تهديد ووعيد مماثلة على رسالة هولاكو ، رفض فيها مطالبه وطلب منه الكف عن غروره والعودة إلى بلاده(٣) .

وإزاء هذا الموقف الرافض من الخليفة العباسى ، أصدر هولاكو أوامره إلى جنوده فى شوال ٦٥٥هـ/١٢٥٧م بالتحرك تحت قيادته من همذان إلى بغداد . ووصلت قوات هولاكو إلى شرق بغداد ، ونصب هولاكو معسكره فى ضاحية من ضواحيها ؛ وخرج جيش الخليفة من بغداد ليمنع

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٦٩ .
(٢) الهمذانى : جامع التواريخ ، جـ١ ، ص٢٦٧ .
(٣) الصياد : المغول فى التاريخ ، جـ١ ، ص٢٥٦ ، ٢٥٧ ، الباز العرينى : المغول ، بيروت ١٩٨١ ص٢١٩ - ٢٢١ .

احتشاد القوات المغولية شرقيها ، غير أن قوات المغول كانت قد كمنت لجيش الخليفة وفاجأتها بهجوم مباغت تحطمت على أثره قوات الخليفة . فانهزم الجيش الخلافى ولقى اثنى عشر ألف مقاتل مصرعهم ، بينما لاذ الناجون الباقون بالفرار إلى الشام(١) .

وتدفق جيش المغول فى هجوم ساحق كهجوم الجراد على الأرض المزروعة ، وحاصروا أسوار بغداد من جميع جهاتها ، واستطاعوا أن ينفذوا إلى داخلها بعد أن حطموا هذه الأسوار ودخلوا إلى داخل المدينة يقتلون ويأسرون ويحرقون ويدمرون ، وسقطت المدينة صريعة تلعق جراحها . وفى الوقت الذى عانت فيه بغداد السقوط فى يد المغول ، أشار وزير الخليفة " ابن العلقمى " الشيعى ، على الخليفة بالتصالح مع المغول ، وأقنع الخليفة بأنه سيتولى بنفسه تقرير عقد هذا الصلح(٢) . وقد كانت تلك حيلة من حيل هذا الوزير الشيعى دبرها مع هولاكو . ولماً عاد ابن العلقمى من مقابلة هولاكو أخذ يحسّن للخليفة الخروج لمقابلة هولاكو ، كما أقنعه بأن هولاكو يريد أن يصاهر الخليفة بتزويج ابنته من ابن الخليفة . كذلك ذكر له أن هولاكو سوف يستبقيه خليفة للمسلمين إذا هو أطاع أمره . وانطلت الخدعة على الخليفة ، ولم يكن بيده إلا القبول لضعف موقفه وانهزام قواته واستباحة عاصمة دولته، فوافق الخليفة وخرج ومعه أولاده وحاشية كبيرة من العلماء والفقهاء والأمراء والقضاة وأعيان بغداد لكى يحضروا عقد الزواج بين ابنة هولاكو وابن الخليفة . فلما اقترب هذا الحشد من مقر هولاكو فوجئوا بهولاكو يصدر

---

(١) الهمذانى : جامع التواريخ ، جـ١ ، ص٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص٤٩ .

أوامره باحتجاز الخليفة ومعه سبعة عشر شخصاً من هذا الحشد فقط من خاصته فى خيمة خاصة قريبة من مقره ، أما الباقون فقد أمر بقتلهم جميعاً وإبادتهم عن آخرهم(١) . ثم أمر هولاكو ، بعد ذلك بقتل الخليفة فقام رجاله بقتله . ويعقب ابن كثير على هذه الواقعة بقوله : "فباءوا بإثمه وإثم من كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء وأولى الحل والعقد ببلاده "(٢) . وأقام المغول مذبحة رهيبة فى بغداد ؛ قيل أن القتل خلالها استمر لحوالى أربعين يوماً ،وبلغ عدد القتلى خلالها أكثر من مليونىْ نفس(٣) .

ومما يجدر ذكره هنا أنه لكثرة من قتل هولاكو من العلماء والفقهاء فى هذه المذبحة ، فقد تعطلت مظاهر الحياة الدينية ببغداد لعدة شهور . ومصداقاً لذلك يورد ابن كثير قوله : " وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن ، وتعطلت بذلك المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد "(٤) .

وكان الشيخ العلامة محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، واحداً من العلماء الأجلاء الذين قتلوا فى مذبحة بغداد ، وكان يتولى آنذاك منصب أستاذ دار الخلافة ، وقد ولى قبله حسبة بغداد مع عمله بالوعظ والتدريس . وكان رسولاً للخلفاء إلى ملوك بنى أيوب ، وواقفاً للمدرسة الجوزية بدمشق(٥) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١٤ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، جـ٧ ، ص٤٩ ، ٥٠ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١٥ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١،ص٤١٠، ابن تغرىبردى:النجوم الزاهرة ، جـ٧، ص٥٠.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١٦ .

(٥) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص٢٢٣ ، ٢٢٤ .

كذلك استشهد فى هذه المذبحة الشيخ الإمام جمال الدين الصرصرى الضرير البغدادى ، أبو زكريا ، وكان علامةً بارعاً فى أنواع عديدة من العلوم .

ومما يذكر بصدد هذا الإمام العالم أنه دافع عن نفسه وعن بيته عند مداهمة جند المغول له ، فأعد فى داره كمية كبيرة من الحجارة رمى بها جند المغول وأصاب منهم جماعة ، ولماً وصلوا إليه وتمكنوا منه قتل أحدهم بعصاه فقتلوه ومات شهيداً مدافعاً عن نفسه وأهله(١) .

ولقد أصاب سقوط بغداد فى يد المغول المسلمين بحزن شديد فى جميع أرجاء العالم الإسلامى ، كما أصابهم جزع كبير على مستقبل الإسلام والمسلمين . فلقد كانت الخلافة رمزاً للأمة الإسلامية يجب أن يظل شامخاً باقياً إلى الأبد ، وأن خليفة المسلمين هو الرئيس الروحى لكل المسلمين ولا بقاء لحياة على الأرض مع فناء الخلافة والخلفاء . لهذا كانت الفاجعة والمصيبة عظيمة على كل بلاد المسلمين فى مشرق البلاد ومغربها . وأصبحت زعامة المسلمين ، بموت الخليفة ، شاغرة مما يجعل العالم الإسلامى كسفينة بلا ربان تتلاطمها الأمواج من كل مكان وتُعجل بغرقها ونهايتها .

وأصاب التوتر والاضطراب جميع حكام المسلمين فى نواحيهم بسبب ما وصل إليهم من أخبار قسوة المغول وشدة انتقامهم وضراوة تخريبهم وإبادتهم لما يقع فى أيديهم من بلاد . وكان على أمراء البلدان المجاورة أن يتصرفوا حيال هذا الخطر الواقع الذى لاح لهم أنه ليس له من مدافعة ، فعليهم إما أن يتجهزوا لحرب انتحارية غير مأمونة العواقب أو يلجأوا

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٢٤ .

لمصالحة المغول ومهادنتهم . ولقد بادر بالفعل بعض أمراء المسلمين المجاورين بالتودد للمغول وإعرابهم عن مشاعر الفرح والابتهاج لانتصارات هولاكو إتقاءً لشره . ومن هؤلاء " بدر الدين لؤلؤ " صاحب الموصل ، وكذلك " عز الدين كيكاوس الثانى "(١) سلطان سلاجقة الروم . وأيضاً الملك الناصر الأيوبى صاحب دمشق وحلب(٢) ؛ الذى سارع وأعلن ولاءه للمغول، وأرسل ابنه " العزيز " بالهدايا والتحف صحبة مجموعة من الأمراء إلى هولاكو(٣) ، وقد حمّل ابنه رسالة إلى هولاكو يطلب منه فيها معاونته فى استخلاص مصر من يد المماليك . ولكن هولاكو غضب لعدم حضور الناصر بنفسه إليه ، ورد على رسالته بتهديد ووعيد وطلب منه أن يقدم إليه بنفسه ومعه رجاله وأمواله طائعاً مختاراً ، وإلا سوف يقدم إليه هولاكو بنفسه ويكتسح بلاده(٤) .

هجوم المغول على بلاد الشام :

وعلى الرغم من تلقىالملك الناصر الأيوبى لرسالة التهديد هذه ، إلا أنها لم تثر لديه أى اهتمام ولم تحرك فيه أى تحفز ، فلم يعمل على تقوية جيشه وتحصين استحكاماته لمواجهة الهجوم الضارى المتوقع ؛ بل إنه لم

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٦ ، ٢٧٧ ، الصياد : المغول فى التاريخ ، جـ١ ، ص٢٧٨ ، الباز العرينى : المغول ، ص٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) هو الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب .

(٣) ابن كثير : نفس المصدر ونفس الجزء ، ص٢٢٨ ، العرينى : المغول ، ص٢٢٨ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٧ ، ٢٧٨ ، المقريزى : السلوك ، جـ١، ص٤١٥ ، ٤١٦ .

يعلن النفير العام بين المسلمين ولم يدعوهم للجهاد والاستشـهاد . وحينما ورد إليه الخبر بعبور المغول نهر الفرات وحصـارهم لمدينـة " بـالس "(١) ، فـى فرقة منهم تعدادها ثمانية آلاف ، لم يهتم ولم يدرك خطورة الموقف على بـلاد الإسلام جميعها(٢) . وكل ما قام به الملك الناصر أنـه خـرج مـن دمشـق إلـى قرية " برزة " ، وهى قرية من غوطة دمشق ، سـنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، علـى رأس فرقة من فرق الجيش تتكون مـن خليـط مـن المتطوعـة والأعـراب مـن مختلف فئات الناس ، دون تعبئة حقيقية . وظل الملك الناصر فى هـذا المكـان حتى دخلت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . ولماً شـعرت قواتـه بضعـف موقفـه وليـن جانبه وعدم تقديره لحقيقة الخطر الواقع ، حاولوا الخلاص منه بقتلـه وإحـلال أخيه الملك الظاهر غازى مكانه لما عرفوه عنـه مـن شـجاعة وإقـدام . ولكـن الملك الناصر علم بهذا التآمر عليه فأسرع هارباً إلى قلعة دمشق محتمياً بها . ولقد أعطى بذلك فرصة لتفرق الجيش الذى كان معـه فهـرب الكثيـرون منهـم إلى غزة وبصحبتهم الملك الظاهر غازى الذى بايعوه سلطاناً عليهم(٣) .

وظل الملك الناصر بدمشق دون عمل شىء حتى بلغه اسـتيلاء المغـول على حلب (فـى ربيـع الأول ٦٥٨هـ / فـبراير ١٢٦٠م(٤) ، ومـا وقـع علـى

---

(١) مدينة بين حلب والرقة تقع غربى نهر الفرات على نحو أربعة أميال (ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٢٨) .

(٢) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، الرياض ١٩٧٦ ، ص٦١.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣٢ ٢٣٣ ، أبو الفدا : المختصـر ، جـ٣، ص١٩٩ ، ٢٠٠، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٦٢ .

(٤) ذكر ابن كثير أن من الشيوخ العلماء الذين قتلهم المغول الشيخ شرف الدين بن العجمى الحلبى الشافعى (البداية والنهاية جـ١٣ ، ص٢٣٨) .

أهلها من قتل وأسر وما أصابها من نهب وتدمير ، حينئذٍ إزداد خوف الناصر وانزعاجه وسارع بالهرب بمن بقى معه من العسكر تاركاً دمشق متجهاً إلى مصر . ووصل الملك الناصر إلى غزة وأقام بها . ومن غزة أرسل لسلطان مصر المملوكى سيف الدين قطز القاضى الوزير كمال الدين عمر بن العديم رسولاً يستنجد به لقتال المغول ، فأرسل إليه السلطان قطز يعده بالمساعدة(١) .

موقف الفقهاء والعلماء فى دمشق من الغزو المغولى لمدينتهم :

وفى تلك الأثناء اشتد الخوف والهلع بأهل دمشق لتخلى سلطانهم عنهم وهروبه من دمشق ولتجردهم من السلاح ، ولتخوفهم من أن يحل ببلدهم من الدمار ما حل بسائر المدن الإسلامية الأخرى . لهذا توجه وفد من الشيوخ والأعيان للاجتماع بنائب هولاكو - كتبغا - وأعلنوا له الاستسلام والخضوع مقابل الحصول على الأمان لأهل المدينة . وقد قبل كتبغا منهم ذلك وكتب لهم أماناً فى صفر ٦٥٨هـ / فبراير ١٢٦٠م(٢) . وبذلك حقن فقهاء وعلماء دمشق دماء أهل مدينتهم .

ودخل كتبغا دمشق فى جمادى الأولى على رأس قواته ، وبصحبته " هيثوم " ملك أرمينية المسيحى ، و" بوهيمند السادس " أمير أنطاكية وطرابلس الصليبى . وشهد سكان دمشق ، لأول مرة منذ ستة قرون ، ثلاثة أمراء مسيحيين يشقون بموكبهم شوارع دمشق .

---

(١) أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ، ص٢٠١ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٧٥ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣٢ ، أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص٢٠٣ .

وبعد سقوط دمشق فى أيدى المغول ؛ أخذت مدن الشام تسقط فى أيديهم واحدة بعد الأخرى حتى وصلوا إلى غزة وباتوا على حدود المدخل الشمالى الشرقى للبلاد المصرية ، يهددون بغزو مصر على يد جيش تركه هولاكو هناك قبل عودته إلى فارس تحت قيادة كتبغا يقدر عدده بنحو عشرين ألف مقاتل .

وكان السلطان قطز ، سلطان المماليك بمصر ، قد أعد العدة وإتخذ الاستعدادات والتجهيزات اللازمة للقاء المغول . وقد انضم إلى جيش قطز أمراء المماليك الذين سبق لهم الهروب من مصر زمن السلطان عز الدين أيبك وانحازوا إلى الناصر يوسف فى دمشق . فعادوا الآن ثانيةً إلى مصر بعد أن تم الوفاق بينهم وبين قطز من أجل وحدة صف المسلمين أمام الخطر المغولى(١) .

ولم يلبث أن وصل إلى قطز بمصر خطاب تهديد من هولاكو ، يطلب منه فيه الاستسلام(٢) ، فاستهان بهذا التهديد ولم يتأثر به ، بل على العكس من ذلك فقد قام بعقد اجتماع مع كبار الأمراء والعلماء والفقهاء ، من أمثال

---

(١) كانت المماليك البحرية بمصرقد كثر ضررهم وطغيانهم وازداد نفوذهم تحت قيادة زعيمهم الفارس "أقطاى" فى عهد سلطنة الملك عز الدين أيبك ، لدرجة أنهم تطاولوا على أيبك وهموا بقتله ؛ فما كان من أيبك إلا أن قام بقتل أقطاى . فخاف البحرية على أنفسهم وهربوا إلىالشام وعلى رأسهم زعمائهم : ركن الدين بيبرس البندقدارى وسيف الدين قلاوون حيث دخلوا فىخدمة الملك الناصر يوسف صاحب دمشق (المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٣٨٤ - ٣٨٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ، ص٣٧٤) .

(٢) ورد نص الخطاب عند القلقشندى (صبح الأعشى ، جـ٨ ، ص٦٣) والمقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٤٢٧ .

قاضى القضاة بدر الدين السنجارى ، وسلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام . وقد تقرر فى هذا الاجتماع الرد على تهديد هولاكو بقتل رسله إعلاناً للتحدى واستهانة بالتهديد . وقام قطز خطيبًا فى المجتمعين يحثهم على الجهاد بقوله : "يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزو كارهون .. أنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك فليرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين "(١).

ومن الجدير بالذكر هنا أنه أثناء هذا الاجتماع الهام استشار قطز العلماء والفقهاء فى أخذ شىء من أموال العامة للاستعانة به فى تجهيز العساكر لجهاد المغول ، موضحاً لهم قلة المال فى خزانة الدولة ورغبته كذلك فى اقتراض المال من التجار . وهنا تصدر للافتاء فى هذه المسألة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وقد كان الاعتماد على ما يقوله العز(٢) .

فقال العز لقطز : " إذا لم يبق فى بيت المال شىء وانفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها ، ساغ أخذ شىء من أموال الناس فى دفع الأعداء ، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم "(٣) . فاستجاب الجميع لفتوى الشيخ ابن عبد السلام .

ولقد قام الشيخ العز بدور كبير فى رفع معنويات المجتمعين ، إذ قال لهم مطمئناً وحاثاً على الجهاد : " لا تخافوا أخرجوا وأنا أضمن لكم على الله

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٤٣٠ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص٦٣ ، العينى : عقد الجمان ، جـ١ ، ص١٨٨.

(٣) السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٨ ، ص٢١٥ ، العينى : عقد الجمان ، جـ١ ، ص٢١٨ ، ٢١٩ .

النصر "(١) وكانت عبارته هذه برداً وسلاماً على القلوب ، قوت الروح المعنوية فيهم وزادت من ثقتهم بالله وثقتهم بأنفسهم .

وأخذ قطز يُكمل استعداداته لملاقاة المغول ، والحقيقة أن تأييد الله كان وراء الظروف التى ساعدت المماليك فى دحر الخطر المغولى . ولقد هيأ الله تعالى الظروف لهذا النصر ؛ ومن هذه الظروف وفاة منكو خان خاقان المغول سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، وقيام النزاع بين إخوته من أجل اقتسام أملاك إمبراطورية المغول الواسعة . وعندما وصلت هذه الأنباء إلى أخيه هولاكو رأى أنه من الحكمة الإسراع بالعودة إلى قراقورم ، حاضرة بلاده ؛ فعاد إليها تاركاً قيادة جيوشه بالشام لكتبغا . ودون شك أن عودة هولاكو إلى قراقورم صحبة جزء كبير من جيشه كان له أثر كبير فى إضعاف قوتهم بالشام ، ذلك فى الوقت الذى كان قطز يستكمل فيه استعدادته للقائهم بحماس زائد(٢) .

موقعة عين جالوت :

خرج قطز على رأس جيوشه قاصداً الشام لملاقاة المغول ، واستطاعت مقدمة الجيش بقيادة " بيبرس البندقدارى " ، أن تتغلب على القوات المغولية المحتشدة فى مدينة غزة ، وأن تطارد فلولها حتى نهر العاصى ، وفى أعقاب ذلك احتلت القوات المدينة سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م . وواصلت بقية القوات المملوكية زحفها تحت قيادة قطز بحذاء الساحل . ولقد تقدم الصليبيون فى عكا بطلب إلى قطز بصدد إمداده بالمساعدة الحربية ، لما عرفوه من غدر المغول مع المسلمين وغير المسلمين . لكن قطز شكرهم

---

(١) السبكى : نفس المصدر السابق ونفس الجزء ، ص٢١٥ .

(٢) الهمذانى : جامع التواريخ ، جـ١ ، ص٣٠٨ .

واستحلفهم " بألا يكونوا له أو عليه "(١) ، حتى يؤمن بذلك ظهره من ناحية الصليبيين .

واتجه قطز شرقاً - عبر الجليل - إلى الأردن عن طريق الناصرة ، لاسترداد دمشق من المغول . وقد لجأ قطز إلى خدعة حربية صائبة ، وهى أنه أخفى معظم قواته بين أشجار الغابات المحيطة بمنطقة عين جالوت ، بين بيسان ونابلس ، وواصلت مقدمة الجيش بقيادة بيبرس سيرها تجاه معسكر المغول . ووصلت من بعلبك قوات مغولية بقيادة كتبغا ، فالتقت القوات المغولية بقوات المماليك عند قرية عين جالوت ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ / سبتمبر ١٢٦٠م(٢) .

ودار قتال عنيف بين الطرفين أظهر خلاله المماليك شجاعة نادرة وبطولة كبيرة ويقال أن السلطان قطز كان يصيح بأعلى صوته بين صفوفه قائلاً : " وا إسلاماه " ، وذلك تحميساً وتشجيعاً لجنده . وأسفرت هذه الموقعة التاريخية الكبرى عن انتصار القوات الإسلامية وهزيمة المغول وقتل قائدهم كتبغا فى المعركة(٣) .

ولا شك فى أن انتصار المسلمين على المغول فى موقعة عين جالوت يُعتبر نقطة تحول خطيرة فى تاريخ العالم بصفة عامة وتاريخ الشرق الأدنى

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٤٣٠ ، العبادى : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩ ، ص١٦٢ .

(٢) الهمذانى : جامع التواريخ ،جـ١ ، ص٣١٣ ، ابن أيبك ، كنز الدرر ، جـ٨ ، ص٥٠.

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٦٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ٨ ، ص٤٩ ، ٥٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص٧٩ ، ٨٠ .

على وجه الخصوص ، فقد أنقذت هذه الموقعة مصر والشام من خطر المغول وحسرت المد المغولى عند حدود العراق . كذلك ثبتت هذه الموقعة دعائم دولة المماليك فى مصر والشام ، وحطمت الاعتقاد الذى ساد آنذاك من أن المغول قوم لا يهزمون ، فقد كانت عين جالوت أول مسمار دق فى نعش دولة المغول .

ودون شك فى أن النصر الذى تحقق فى عين جالوت كان توفيقاً ومساندة من الله تعالى لدينه وللمسلمين ، وهو وحده يعلم بما كان سوف يحل بدولة الإسلام وبالمسلمين لو لم يتحقق هذا النصر العظيم . لكن الله تعالى بشر المجاهدين بالنصر ووعدهم به بقوله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ . ولا شك فى أن الحماس الدينى والإقبال على الجهاد وعدم الخوف من الموت والاستشهاد كان دور علماء المسلمين وفقهائهم فى هذه المعركة التاريخية الحاسمة . ولقد تقدم العلماء والفقهاء صفوف المقاتلين وحاربوا بالسيف وبالكلمة ، وضربوا أروع الأمثلة فى الصمود والتحدى لبقية المقاتلين الذين انساقوا وراءهم يضربون ويقتلون ملبين لنداء سلطانهم : " وا إسلاماه " .

وبعد أن قطع قطز دابر المغول بالشام ورتب الأمور بها وأراد العودة إلى مصر ، حدث نزاع بينه وبين بيبرس وجماعته ، قُتل قطز على أثره ، وبايع الأمراء بيبرس سلطاناً عليهم ، وهكذا اغتالت يد الغدر ذلك القائد العظيم الذى سجل التاريخ اسمه فى صفحاته بحروف من نور .

ولقد أعقب مصرع قطز انقسام بين صفوف المماليك ، استغله المغول للانتقام من هزيمتهم فى عين جالوت ومصرع قائدهم كتبغا . وكانت أول

مظاهر هذا الانقسام هو قيام الأمير سنجر الحلبى ، نائب السلطنة فى دمشق ، بإعلان نفسه سلطاناً ورفضه مبايعة بيبرس سلطاناً(١) .

وانتهز المغول هذه الفرصة فبادروا بشن هجوم على الشام واستولوا على حلب وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها انتقاماً لمقتل كتبغا فى معركة عين جالوت(٢) .

ولكن أميرىْ حماة وحمص تصديا للقوات المغولية ، واستطاعوا الانتصار على هذه القوات بالقرب من حمص ، وذلك بمشاركة القوات المملوكية التى أرسلها بيبرس إلى بلاد الشام سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠-١٢٦١م .

ولا شك فى أن النصر الذى تحقق فى موقعة حمص ، كان نتاجاً لنصر عين جالوت . وقد رفعت موقعة حمص من الروح المعنوية للمسلمين ، وفى المقابل كان لها أسوأ الأثر عند المغول ، حتى بلغ من شدة غيظ هولاكو حين علم بهزيمة قائده " بيدرا " فى هذه الموقعة أن أمر بقتل الملك الناصر يوسف صاحب دمشق السابق والذى كان سجيناً عنده(٣) .

وعندئذٍ جهز السلطان الظاهر بيبرس جيشاً لإخراج المغول من حلب ، فسار إليها وتمكن من دخولها منتصراً وأخرج المغول منها " على أقبح وجه " ، كما ذكر ابن تغرى بردى(٤) . ولم يرتدع المغول بعد ذلك فواصلوا هجومهم على بعض بلاد الشام حين سنحت لهم الفرصة لذلك ؛ فهاجموا

---

(١) ابن كثير : البداية ، جـ١٣ ، ص٢٣٦ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ٨ ، ص٦٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص١٠٦ .

(٣) الذهبى : دول الإسلام ، جـ٢ ، ص١٦٦ .

(٤) النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص١٠٩ .

البيرة(١) سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م ، ولكنهم ابتعدوا عنها عندما أحسوا بوصول الجيوش المصرية إلى حران(٢) .

وفى سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م توفى هولاكو ، وأعقب وفاته حدوث انقسام فى صفوف المغول بسبب النزاع على السلطة بين بركة خان ، ابن عم هولاكو ، وبين أبغا خان ابن هولاكو وأسفر النزاع عن وقوع الحرب بينهما التى انتهت بانتصار بركة خان على أبغا(٣) . وعقب هذه المعركة انقسم المغول إلى معسكرين : مغول فارس تحت حكم أبغا ، ومغول القبجاق (القبيلة الذهبية) شمالى بحر قزوين والبحر الأسود . وقد حاول مغول فارس إقامة جبهة موحدة مع الصليبيين ضد المسلمين ، لكن الظاهر بيبرس نجح فى إفشال مشروع التحالف المغولى الصليبى ، بعقده تحالف مضاد مع مغول القبجاق ، وقد ساعد على إتمام هذا التحالف اعتناق الملك بركة خان لدين الإسلام . وتأكدت أواصر التحالف بين الجانبين بزواج الظاهر بيبرس من ابنة بركة خان ، وأصبح التحالف بين مصر ومغول القبجاق ، منذ ذلك الوقت ركناً تقليدياً من أركان سياسة دولة المماليك بمصر والشام ، وساعد هذا التحالف فى وقوف سلاطين المماليك موقفاً حازماً من مغول فارس .

وقد قام المغول بعدة غارات على حلب ، قام بيبرس ، على أثرها ، بإرسال قواته لإبعادهم عنها ، ولم يسع المغول إلا الفرار

(١) البيرة : قلعة حصينة مرتفعة على حافة نهر الفرات فى البر الشرقى (أبو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص٢٦٨ ، ٢٦٩) .

(٢) ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ٨ ، ص١٠٧ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٤٤٣ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٥٤١ ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٢٨٥ .

خوفاً من مواجهة الظاهر وجيوشه ، وارتد المغول إلى ما وراء نهر الفرات .

وأرسل أبغا فى شوال سنة ٦٧٠هـ/١٢٧٢م يطلب الصلح مع بيبرس، وفشلت مفاوضات الصلح التى تجددت فى العام التالى وفشلت أيضاً . ولذلك أرسل المغول فرقة مغولية إلى البيرة قامت بحصارها . وكان الظاهر فى دمشق آنذاك ، فلما علم بهذا الهجوم سار بنفسه على رأس قواته ليفك الحصار عن البيرة ، وتقابل مع الفرقة المغولية على شط الفرات ، فوقعت الهزيمة بالمغول ولم يجد رجالهم أمامهم سوى إلقاء أنفسهم فى مياه النهر أملاً فى النجاة(١) ، وقد قام بيبرس بأسر عدد كبير من رجال المغول عاد بهم فى الأغلال إلى دمشق .

ومن خلال ما أورده ابن تغرى بردى عن هذه المعركة وما أورده من أشعار قيلت فيها نستنتج أن الفقهاء والعلماء قد شاركوا مشاركة فعلية بالقول والعمل فى هذه المعركة ، وكان أبرزهم فيها الشيخ ناصر الدين حسن بن النقيب الكنانى الشاعر ، الذى نظم قصيدة فى هذه الموقعة ، وذكر عنه ابن تغرى بردى أنه " كان حاضراً الوقعة "(٢) .

وفى سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٧م علم الظاهر بيبرس بأن عسكر الروم قد اجتمعوا مع عسكر المغول على نهر جيحان(٣) ، فتوجهت القوات المملوكية

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٦٠٦،٦٠٧ ، ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨ ، ص١٦٩.

(٢) النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص١٥٨ – ١٦٠ .

(٣) نهر يخرج من بلاد الروم ويصب عند مدينة إزاء المصيصة تُعرف بكفر بيا ، (ياقوت : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١٩٦) .

بقياة السلطان الظاهر بصحبة العامة والعلماء والفقهاء ، إلى صحراء الأبلستين(١) . ووقع القتال بين الطرفين ، وكادت الهزيمة تقع فى جيش المسلمين بسبب كثرة عدد جند الأعداء فوقع خلل فى صفوف المسلمين ، عندئذٍ لجأ الظاهر بيبرس إلى العلماء والفقهاء ليحمسوا الناس على الجهاد وطلب الاستشهاد(٢) ، وبالفعل قام العلماء والفقهاء بالأهلال والتكبير وتقدموا الصفوف لقتال العدو ، فأثار موقفهم بقية الجند فقاموا قومة رجل واحد وحاربوا دون مبالاة بالموت ، فحققوا بذلك نصراً كبيراً وقتلوا من العدو أعداداً هائلة وأسروا أعداداً . وقد قُتل فى هذه المعركة القائد المغولى تتاون ، بينما تمكن قائد جيوش الروم من النجاة بنفسه والفرار إلى قيسارية .

وعلى أثر هذه الهزيمة وصل أبغا بقواته إلى قيسارية ، فصب غضبه على أهلها وقام بنهبها وقتل من كان بها من المسلمين ، ويُقال أنه قد قتل من الفقهاء والقضاة ورعايا المسلمين الذين تواجدوا فيها ما يزيد على الألفى نفس(٣) .

ولقد استمرت المناوشات بين الطرفين الإسلامى والمغولى حتى وفاة السلطان الظاهر بيبرس فى المحرم سنة ٦٧٦هـ / يوليو ١٢٧٧م ، ودفنه فى مدينة دمشق .

ولقد كانت الفترة التى أعقبت وفاة الظاهر بيبرس وحتى قيام السلطان المنصور سيف الدين قلاوون بالسلطنة سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م ، فترة مليئة

---

(١) وهى مدينة مشهورة ببلاد الروم (ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٥٧) .

(٢) الذهبى : دول الإسلام ، جـ٢ ، ص١٧٦ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٦٣٣ ، ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ٨ ، ص٢٠٧ .

بالقلاقل والفتن الداخلية فى مصر والشام ، وذلك بسبب التنازع على العرش . وقد تولى الحكم فيها اثنان من أبناء بيبرس الصغار وهما : محمد بركة وبدر الدين سلامش ، وقد حاول المغول خلالها مهاجمة دولة المماليك والاستفادة من هذا الاضطراب ، واستغل أبغا هذه الفرصة ، بعد أن أعلن قلاوون نفسه سلطاناً فأغار بقواته من جديد على بلاد الشام وهاجم أعمال حلب ، واستولى على عينتاب وبغراس ودربساك ، ودخلوا حلب ، وعمدوا إلى همجيتهم ووحشيتهم المتأصلة فيهم ، فقتلوا ونهبوا وسبوا وأحرقوا المساجد والمدارس ودار السلطنة ، وبعد أن حققوا ما أرادوا انسحبوا عائدين بغنائمهم وارتدوا إلى ما وراء الفرات خوفاً من انتقام المسلمين منهم[١] .

وعاود المغول هجومهم على الشام فى العام التالى وقصدوا مدينة حماة، لكن جيوش قلاوون التقت بهم قرب حمص ، وكان عدد المغول ، على ما قيل مائة ألف فارس أو يزيدون وعسكر المسلمين على مقدار النصف من ذلك أو أقل[٢] . وقد انضم لجيش المغول كل من ملك قليقية ، ليو الثالث ، بقواته ورجال الإسبتارية من حصن المرقب[٣] . ولقد وقع اشتباك عظيم بين الفريقين ، ويصف الشيخ قطب الدين اليونينى ، الذى شارك فى هذه الموقعة بقوله : " وكانت وقعة عظيمة ولم يشهد مثلها فى هذه الأزمان ولا من سنين كثيرة "[٤] .

---

(١) ابن حبيب : تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ١٩٧٦ ، جـ١ ، ص٥٩.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ، ص٣٠٣ .

(٣) العرينى : المغول ، ص٣٠٤ .

(٤) اليونينى : ذيل مرآة الزمان ، طبعة الهند ١٩٦١ ، جـ٤ ص٩٣ .

واستطاعت جيوش قلاوون أن تنزل هزيمة ساحقة بجيش المغول وحلفائهم ، فقتل منهم عدد كبير وفر عدد آخر مجتازاً نهر الفرات ، الذى أضحى الحد الفاصل بين الدولتين المملوكية والمغولية . ولَّما علم أبغا بالهزيمة الساحقة التى مُنى بها جيشه بقيادة قائده الكبير منكوتمر رجع إلى همذان ومات هناك غماً وكمداً ، وذلك فى سنة ٦٨٠هـ/١٢٨٢م(١) .

ولقد اتضح لنا من خلال كتابات المؤرخين أن دور الفقهاء والعلماء فى الجهاد ضد المغول فى هذه المعركة كان كبيراً ، فلم يقتصر هذا الدور على الدعاء وتشجيع الناس على الجهاد فحسب ، بل تقدموا الصفوف وشاركوا فى القتال بالسلاح مشاركة فعلية ، واستشهد منهم الكثيرون وهم يقاتلون فى هذه المعركة . ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، الشيخ أبو محمد عبد الله اليونينى الذى ذكر عنه قطب الدين اليونينى " أنه حضر مصاف حمص بين المسلمين والمغول وقاتل قتالاً شديداً واستشهد فى هذا القتال ودفن بقرب مشهد خالد بن الوليد رضى الله عنه "(٢) .

كذلك قاتل فى هذه المعركة واستشهد من العلماء الشيخ العالم شمس الدين يوسف بن إبراهيم بن قريش المصرى ، أحد كتاب الدرج بالديار المصرية ، وقد استشهد وله من العمر سبعون عاماً(٣) .

وبعد وفاة أبغا تبدلت العلاقات فجأة بين مغول فارس وسلطنة المماليك، فقد تولى الحكم بعده أخوه تكودار سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م ، الذى كان قد اعتنق

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧،ص٣٤٨،اليونينى:ذيل مرآة الزمان ، جـ٤،ص١٠٠.
(٢) اليونينى : ذيل مرآة الزمان ، جـ٤ ، ص١١١ ، ١١٢ .
(٣) اليونينى : نفس المصدر ، جـ٤ ، ص١٣٣ ، ١٣٤ .

الإسلام وتسمى باسم أحمد . وأراد أحمد تكودار التصالح مع دولة المماليك ، وكان من الطبيعى أن يرحب قلاوون بذلك ، لكن قواد المغول اعترضوا على محاولة الصلح هذه وقاموا بقتل تكودار وتعيين ابن أخيه " أرجون بن بُغا " مكانه فى حكم مغول فارس .

ولقد كان أرجون يكره المسلمين ، فقام بقتل أعداد كبيرة منهم فى البلاد التى كانت تحت يده ، الأمر الذى أدى إلى معاداة دولة المماليك له . ويُعتبر أرجون مؤسس دولة المغول " الإيلخانية " المعادية لدولة المماليك وللمسلمين، وقد ظلت هذه الدولة على حرب مع عدد كبير من سلاطين دولة المماليك البحرية . وقد أدى ذلك العداء إلى اشتداد الشعور فى دولة المماليك بضرورة طرد المغول من العراق وتحريرها منهم . ولم يستطع المماليك تنفيذ ذلك إلا فى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣م) . ولقد قام هذا السلطان بالإغارة على بلاد المغول وحاصر قلعة الروم ، معقل نشاطهم ، واستولى عليها ، وقد تم له ذلك فى عهد حكم " غازان " ، حاكم مغول فارس الذى تولى السلطة فيها بعد موت أرجون سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م .

ولم تتوقف حروب خليل بن قلاوون مع المغول ، خاصةً بعد أن تفرغ لمواجهتهم بعد تخلصه من الخطر الصليبى فى الشام نهائياً بعد اقتلاع آخر جذورهم منها باستيلائه على مدينة عكا سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م . ولقد اعتزم السلطان خليل التوجه إلى بغداد لانتزاعها من يد المغول ، لكن عزمه لم يتحقق إذ لقى مصرعه على أثر مؤامرة دُبرت ضده فى المحرم سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م .

وعقب مقتل الأشرف خليل دخلت سلطنة المماليك فى فترة صراع داخلى وتنازع قواد المماليك على السلطنة ، كما هى العادة عقب وفاة كل سلطان ، واستمرت هذه الفترة حتى كانت سلطنة المنصور لاجين (٦٩٦ - ٦٩٨هـ/١٢٩٦ - ١٢٩٩م) ثم سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية (٦٩٨ - ٧٠٨هـ/١٢٩٩ - ١٣٠٩م)(١) .

ولقد انتهز المغول فترة الصراع هذه وتحركت لديهم الرغبة فى غزو بلاد الشام ؛ فاندفع غازان بجيوشه سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م ليعبر الفرات إلى بلاد الشام ، فتوجه السلطان الناصر محمد ، وكان يبلغ من العمر وقتها أربعة عشر عاماً ، بعساكره إليها وقصد مدينة حمص ، وعسكر بجيشه فى مكان يسمى وادى الخازندار خارج المدينة . وهناك التقى جيش الناصر بجيش المغول ، ودارت معركة عنيفة انتهت بنصر المغول وفرار السلطان المملوكى وبعض رجال دولته إلى بعلبك ومنها إلى دمشق(٢) .

ومن الجدير بالذكر أن الفقهاء والعلماء قد شاركوا فىهذه المعركة ، وقد ذكر ابن كثير أن قاضى القضاة حسام الدين أبو الفضائل الحنفى قد استشهد فى هذه المعركة وهو فى سن السبعين(٣) . كذلك يذكر ابن العماد

(١) تولى الناصر محمد بن قلاوون الحكم ثلاث مرات ، إلا أنه فى المرتين الأوليتين كان طفلاً صغيراً لكنه فى المرة الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١هـ) كان قد صلُب عوده ونجح فى دعم حكمه والتخلص من أعدائه وإقامة الحكم المستقر الآمن الذى لم تعرفه مصر فى عهد سابقيه من سلاطين المماليك .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٨٨٦ - ٨٨٨ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص١٩٠ .

الحنبلى أن فى هذه الموقعة استشهد من شيوخ الحديث بدمشق والجبل أكثر من مائة شيخ(١) .

وكان لهذه الهزيمة التى لحقت بالجيوش المملوكية على يد المغول ، لأول مرة(٢) ، أسوأ الأثر فى نفوس أهل دمشق وغيرها من بلاد الشام ، فقد أصاب الناس الخوف والهلع مما قد يحدث لهم على يد المغول لو تقدموا إلى بلادهم .

وهنا تصدر العلماء والفقهاء والأعيان للاجتماع الذى تم عقده فى " مشهد على " بدمشق مع أهل البلد ، وتشاوروا فى أمر الخروج إلى ملك المغول غازان من أجل أخذ الأمان لأهل دمشق حقناً لدماء المسلمين . ويعدد المؤرخ ابن تغرى بردى أسماء الفقهاء والعلماء الذين حضروا هذا الاجتماع الهام قائلاً: " .. من الفقهاء قاضى القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة ، خطيب جامع دمشق آنذاك ، والشيخ زين الدين الفارقى ، والشيخ تقى الدين بن تيمية ، والقاضى نجم الدين بن الصيصرى ، والصاحب فخر الدين بن السيرجى ، والقاضى عز الدين بن الزكى ، والشيخ وجيه الدين بن المنجا ، والشيخ الصدر الرئيس عز الدين عمر بن القلانسى ، وابن عمه شرف الدين ، وأمين الدين بن شقير الحرانى ، والشريف زين الدين بن عدنان ، والصاحب شهاب الدين الحنفى ، والقاضى شمس الدين بن الحريرى ، والشيخ محمد بن قوام النابلسى .... وجماعة كثيرة من العدول والفقهاء والقراء "(٣).

---

(١) شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص٤٣٣ .

(٢) بعد عين جالوت .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٨ ، ص١٢٣ .

وقد اتفق رأى المجتمعين على المسير إلى غازان ومقابلته قبل أن يدخل دمشق ، ليأخذوا الأمان منه لأهلها . وبالفعل توجهوا يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م واجتمعوا بغازان خارج دمشق ، وفى هذا اللقاء تجلت شجاعة وقوة الشيخ الفقيه العالم تقى الدين بن تيمية ، فيذكر ابن كثير أنه فى أثناء الاجتماع بغازان " كلمه الشيخ تقى الدين كلاماً قوياً شديداً فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ولله الحمد "(١) .

وظلت دمشق وأهلها فى قلق وخوف حتى وصلهم رسول من غازان يحمل لهم أماناً يطمئن فيه الناس على أرواحهم ، فسكنت قلوب الأهلين واطمأنت . ولكن سرعان ما نقض غازان العهد ، إذ دخلت قواته دمشق يوم الاثنين ١٠ من ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ/١٣٠٠م وقامت بنهبها والإفساد فيها، ثم فرضوا على أهلها أموالاً طائلة وضاعفوها عليهم أكثر من مرة . فلاقى منهم أهل دمشق من جراء ذلك ويلات وشدائد كثيرة .

وإزاء تلك التصرفات اللا إنسانية ، لم يقف العلماء ساكنين ، بل تجمعوا تحت قيادة الشيخ ابن تيمية واتفقوا على ان يتوجهوا لمقابلة غازان وتذكيره بوعد أمانه لأهل دمشق ، لكن هذا الوفد لم ينجح فى مقابلة غازان (٢) .

وفى تلك الأثناء حاول غازان ملك مغول فارس أن يستولى على قلعة دمشق ، التى استعصت عليه ، وكان يلى أمرها الأمير أرجواش المنصورى(٣) .

---

(١) ابن كثير البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص٨ .

(٢) ابن كثير : البداية ، جـ١٤ ، ص١٠ .

(٣) هو الأمير علم الدين سنجر المنصورى ، المعروف بأرجواش ، والمتوفى سنة ٧٠١هـ (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٨ ، ص١٢٥ ، ص١٩٨) .

وقد ثبت هذا الأمير فى الاحتفاظ بالقلعة ولم يضعف أمام التهديد المغولى ، ويتضح لنا من خلال ما ذكره ابن كثير أنه كان للشيخ ابن تيمية دور كبير وبارز فى وقفة الشجاعة العظيمة التى أبداها أرجواش ، يقول ابن كثير : " .. وصمم (أراجواش) على ترك تسليمها إليهم وبها عين تطرف ، فإن الشيخ تقى الدين بن تيمية أرسل إلى نائب القلعة يقول له ذلك ؛ لو لم يبق فيها إلا حجر واحد فلا تسلمهم ذلك إن استطعت ، وكان فى ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم هذا الحصن والمعقل الذى جعله الله حرزًا لأهل الشام التى لا تزال دار إيمان وسُنة "(١) .

ولقد استمر الشيخ ابن تيمية يجاهد المغول من موقعه داخل دمشق ، من ذلك أنه خرج فى ثامن رجب من السنة نفسها (٦٩٩هـ/١٣٠٠م) إلى معسكر " بولاى " ، قائد العسكر المغولى ، فاجتمع به وتفاوض معه فى فك أسر المسلمين الذين عنده ، ونجحت مساعى الشيخ واستطاع أن يستنقذ كثيراً من أسارى المسلمين بعد مفاوضات استمرت مدة ثلاثة أيام(٢) .

وفى الشهر نفسه ، أمر أرجواش نائب قلعة دمشق بالنداء من الجامع الأموى ، بعد الصلاة ، بإعلام الناس بأن العساكر المصرية قادمة وهى فى طريقها إلى الشام ؛ فلماً سمع المغول ذلك أصابهم الرعب وارتحلوا عن دمشق . وعندئذ خرج أعيان دمشق وعلمائها وفقهائها ، وفى مقدمتهم الشيخ عز الدين بن القلانسى ، لمقابلة القوات المصرية . ولماً خرج هؤلاء جميعاً ولم يبق فى البلد أحد ، خاف أرجواش أن ينتهز المغول الفرصة ويعاودوا

---

(١) ابن كثير : البداية ، جـ١٤ ، ص٩ .

(٢) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص١١ ، ١٢ .

مهاجمة دمشق ؛ لذلك طلب أرجواش من المقاتلين أن يخرجوا أسلحتهم ويحافظوا بها على أسوار وأبواب المدينة . ولقد شارك الشيخ ابن تيمية الناس فى هذا الأمر ولم يبت فى داره ، " وكان يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط "(١) .

وبدأ الجميع فى الاستعداد وعمل التحصينات اللازمة تحسباً لعودة المغول مرة أخرى لدمشق ، ونودى فى المدينة بأن يعلق الناس الأسلحة بالدكاكين ، وصدرت الأوامر بأن يتعلم الناس الرمى ، وذلك حتى يشترك الجميع فى قتال العدو إذا ما وصل إلى البلاد . فعُملت أماكن للتدريب على ذلك فى أماكن كثيرة بالمدينة . ومما يذكر هنا أن قاضى القضاة بدمشق أصدر أوامره بفتح المدارس للتدريب فيها على الرمى ، كما أصدر أوامره بأن يتعلم الفقهاء الرمى وأن يستعدوا لقتال العدو إذا هو حضر(٢) .

وفى بداية سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م وصلت الأخبار إلى مصر بتحرك المغول إلى الشام وعزمهم على غزو مصر ، فأثار ذلك ذعر الناس وخوفهم. ولما تنامت هذه الأخبار إلى علم أهل دمشق سارع الشيخ ابن تيمية بعقد مجلس وعظه بالجامع الأموى وتحريض الناس على الصمود فى وجه العدو وقتاله ونهاهم عن التخاذل والفرار من وجه العدو ، ورغبهم فى الجهاد بالنفس والمال . وفى أول ربيع الآخر من نفس العام اشتد خوف أهل دمشق بعد أن وصلهم خبر وصول المغول إلى البيرة ، فقام جماعة الفقهاء والعلماء بتطييب قلوب الناس والتخفيف عنهم وطمأنتهم بقرب وصول قوات السلطان من مصر . ولكن جاءت الأخبار بأن السلطان بعد أن خرج مع العساكر من

---

(١) ابن كثير : البداية ، جـ١٤ ، ص١٢ .

(٢) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص١٣ ، ١٤ .

مصر قاصداً الشام منعته الأمطار والسيول والبرد الشديد عن مواصلة السير مما اضطره للعودة إلىمصر حتى تخف حدة هذه الحالة فيرجع إلى الشام(١). ونتيجة لتأخر وصول السلطان واقتراب العدو من دمشق ، زاد وجل الناس وذعرهم ، فخرج إليهم الشيخ ابن تيمية والتقى بهم مع نائب الشام (مستهل جمادى الأولى) فثبتهم وقوى جأشهم ووعدهم بالنصر والظفر على الأعداء . وأثناء هذا الاجتماع طلب النائب والأمراء من الشيخ التوجه إلى مصر ليستحث السلطان محمد بن قلاوون على سرعة القدوم إلى الشام ، ولم يتأخر الشيخ عن القيام بهذه المهمة ولم يعبأ بخطورة الطريق . وكان هذا الدور من الشيخ ابن تيمية أكبر دليل على أهمية دور الفقهاء والعلماء فى مواجهة الخطر المغولى .

وفى القاهرة اجتمع الشيخ ابن تيمية مع السلطان والوزراء والأمراء والأعيان واستحثهم على تجهيز العسكر والتوجه به إلى الشام ، وقد قال لهم ضمن ما قال : " إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته أقمنا له سلطاناً يحوطه ويحميه ويستغله فى زمن الأمن .... ولو قُدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه واستنصركم أهله وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنه "(٢) ثم تلا الشيخ قوله تعالى : ﴿ وإن تولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾(٣) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً ﴾(٤) .

---

(١) ابن تغرى بردى / النجوم ، جـ٨ ، ص١٣١ .

(٢) ابن كثير : البداية ، جـ١٤ ، ص١٧ .

(٣) محمد : ٣٨

(٤) التوبة : ٣٩

ومما يذكر هنا أن الشيخ القاضى تقى الدين بن دقيق العيد ، عندما بلغه موقف الشيخ ابن تيمية ، استحسنه وأُعجب به ، وتعجب من جرأة ابن تيمية ومقدرته على مواجهة السلطان بمثل هذا القول الشديد وبكل هذه القوة . وعلى ذلك أخذ الشيخ ابن تيمية فى تقوية جأش الأمراء والمجتمعين مع السلطان ، وضمَن لهم النصر هذه الكرة . فخرجوا من مصر قاصدين الشام ، وعاد ابن تيمية إلى الشام فى ٢٧ جمادى الأولى . ولمّا علم أهل دمشق ذلك فرحوا واطمأنوا ، ونودى فى الناس بالاستعداد لمجابهة المغول الذين كانوا قد وصلوا إلى سرمين ، جنوبى حلب . فخرج جماعة من الفقهاء من بينهم : الشيخ زين الدين الفارقى ، والشيخ إبراهيم الرقى ، وابن قوام ، وابن خبارة، واجتمعوا بنائب السلطنة فى دمشق وقووا عزمه على ملاقاة العدو . ثم توجهوا ، بعد ذلك ، واجتمعوا بالأمير مهنا ، أمير العربان ، وحرضوه على قتال العدو ، فأجابهم بالسمع والطاعة(١) .

وهكذا استعد الجميع للقتال وأعدوا له عدته بفضل تشجيع العلماء والفقهاء لهم ، لكن الأخبار جاءت لأهل دمشق ، بعد ذلك ، بأن ملك المغول غازان قد عبر الفرات بنية العودة إلى بلاده بعدما شعر بقوة استعداد المسلمين وقلة عدد جنوده . ففرح أهل دمشق بذلك واستبشروا(٢) .

ولماً رجع غازان إلى بلاده حاول الحصول على مساعدات من الدول الأوربية الصليبية ولكن محاولته باءت بالفشل ، فلم يكن أمامه إلا طلب

---

(١) ابن كثير : نفس المصدر والجزء ، ص١٧ ، ١٨ .

(٢) الذهبى : دول الإسلام ، جـ٢ ، ص٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨، ص١٣٢ .

الصلح والهدنة مع سلطان المماليك وذلك لكسب الوقت لتجهيز قوته من جديد ليستأنف نشاطه مرة أخرى(١) ، لذلك أرسل سفارة من عنده إلى الملك الناصر يطلب فيها الصلح . وفى الوقت نفسه وردت أخبار للملك الناصر بأن غازان أرسل جيشاً من عنده بقيادة قائده قطلوشاه ، وأن هذا الجيش قد وصل إلى قرب الفرات . فسارع الناصر بإصدار أوامره بخروج جيوشه للقاء العدو، وذلك فى شهر رجب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٣م ، ووصلت هذه القوات إلى الشام فى منتصف شعبان تحت قيادة الأمير بيبرس الجاشنكير ، وكان عددها حوالى الثلاثة آلاف جندى(٢) . واتخذت الجيوش الإسلامية مدينة حماه مركزاً لتجمعها . ووصلت العساكر المصرية واجتمعت مع الشامية يوم الخميس ٢٩شعبان سنة ٧٠٢هـ / مايو١٣٠٣م ، وفى يوم السبت ثانى رمضان اتفق الجميع على قتال المغول عند مرج الصفر(٣) . ولقد شهد الخليفة العباسى المستكفى بالله هذه المعركة وكان واقفاً إلى جانب السلطان فى قلب الجيش ، وكان هدف اصطحاب الخليفة فى هذه المعركة هو تقوية الروح المعنوية عند المحاربين . وبعد قتال عنيف أبلى فيه المسلمون بلاءً عظيماً ، انكسر جيش المغول وانهزم هزيمة ساحقة فى هذه المعركة التى تُعد أقسى على المغول من معركة عين جالوت . ولقد قتل من المغول فى هذه المعركة أعداد هائلة ، حتى أنهم بعدها جنحوا إلى السلم ولم يفكروا ثانيةً فى محاربة المسلمين .

---

(1) Howorth: History of the Mongols, Part 3, p. 457.

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٩٣١ .

(٣) تُطلق بعض المصادر على هذه المعركة بمعركة شقحب ، وهى مرج الصُفر وهى قرية من أول عمل حوران من نواحى دمشق ، وتُعرف هذه القرية أيضًا بغباغب (ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص١٨٤) .

وكان لهذه المعركة من الفرحة والبهجة فى نفوس المسلمين فى سائر العالم الإسلامى ، ما كان لمعركة عين جالوت من صدى فى نفوسهم .

ولقد كان للشيخ ابن تيمية دور كبير فى هذه المعركة وفى النصر الذى تحقق للمسلمين فيها ، فلقد وقف يقاتل إلى جوار الخليفة والسلطان ، وكان يحرض المسلمين على القتال ويبشرهم بالنصر . ولقد أفتى ابن تيمية المقاتلين بالفطر مدة قتالهم فى شهر رمضان وأفطر هو أيضاً حتى يقتدى المقاتلون به " وكان يدور على الأجناد فيأكل من شىء معه فى يده ليعلمهم أن إفطارهم ليقووا على القتال أفضل من صومهم وضعفهم "(١) .

وتعد معركة مرج الصفر (شقحب) هذه من المواقع التاريخية الحاسمة، فبعد الهزيمة الساحقة التى منى بها المغول لم تقم لغازان بعدها قائمة ، فعندما وقع الخبر عليه بالهزيمة " اغتم غماً عظيماً وخرج من منخريه دم كثير حتى أشرف على الموت ، واحتجب عن حواشيه ، فإنه لم يصل إليه من عساكره من كل عشرة واحد ممن كان انتخبهم من خيار جيشه ... وفى الجملة فإنه حصل على غازان - بهذه الكسرة - من القهر والهم مالا مزيد عليه "(٢) . وظل غازان يقاسى مرارة هذه الهزيمة حتى مات كمداً فى ١٣ذى الحجة سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م(٣) .

وتولى حكم مغول فارس بعد موت غازان أخوه خربندا بن أرجون ، الذى تلقب باسم " أولجاتيو محمد " عند توليه السلطنة ، وكان مسلماً على

(١) ابن الوردى : تتمة المختصر ، جـ٢ ، ص٢٨٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ، جـ٤ ، ص٥٠ ، العينى: عقد الجمان، جـ٤ ، ص٣١٦ ، ٣١٧.

المذهب الشيعى . وقد طلب أولجاتيو من الملك الناصر الصلح ووقف الحرب بين المغول وسلطنة المماليك . ولكن أولجاتيو لم يكن جاداً فى هذا الصلح فسرعان ما ظهرت خبايا نفسه لمخالفته مذهب المماليك السُنى . وظهرت نوايا أولجاتيو العدوانية فى سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٦م حين كمنت قواته لجيش حلب وقتلت وأسرت منهم عدداً كبيراً حملوهم إلى بلادهم . وكان صاحب سيس قد ساعد المغول على هذا النصر . وإزاء هذا التعدى أمر السلطان الناصر محمد بخروج تجريدة من مصر إلى صاحب سيس لتأديبه على مساعدته للمغول فى هجومهم هذا . لكن صاحب سيس قدم اعتذاره للسلطان ووعده بإعادة الأسارى المسلمين له ، وبالفعل نجح صاحب سيس فى إطلاق سراح أسارى المسلمين من يد المغول فرجعت التجريدة المصرية من غزة بعد أن كانت قد وصلت إليها(١) .

وأعقب ذلك اضطراب الأمور فى مصر وتنازل السلطان الناصر محمد عن السلطنة ولجوئه إلى الكرك ، واعتلاء الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير السلطنة فى شوال ٧٠٨هـ/١٣٠٩م ، ثم عودة الناصر محمد للسلطنة للمرة الثالثة فى شوال ٧٠٩هـ/١٣١٠م . وكان نتيجة هذه الاضطرابات أن هرب بعض أمراء المماليك إلى أولجاتيو يستنصرونه على الناصر محمد ، وكان على رأس هؤلاء الأمراء الأمير قراسنقر ، نائب الشام، والأمير أقوش الأشرم ، وقد زينوا لأولجاتيو أخذ الشام . وكان أن استجاب أولجاتيو لذلك وعزم على غزو الشام وتوجهت بالفعل قواته إلى الشام سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م ووصلت الرحبة ، التى دافع عنها نائبها وأهلها دفاعاً شديداً حتى ردوهم عنها مما جعله يرتد عنها . وفى شهر شوال من نفس العام

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ص١٧ ، العينى : عقد الجمان ، جـ٤ ، ص٣٨٣ .

وصل السلطان الناصر محمد إلى دمشق على رأس جيشه لرد المغول ، ويذكر ابن كثير أن الشيخ ابن تيمية حضر من مصر صحبة السلطان بنية مقاتلة العدو(١) . ولما وجدت قوات السلطان أن قوات المغول قد عادت إلى بلادها لم يقع بين الطرفين قتال ، فعاد السلطان وقواته إلى القاهرة فى صفر ٧١٣هـ/١٣١٣م .

ولقد ظلت العلاقات سيئة بين أولجاتيو والناصر محمد ، حتى وفاة أولجاتيو فى شهر رمضان ٧١٦هـ/١٣١٦م(٢) . وقد تولى حكم مغول فارس بعد موت أولجاتيو ابنه " بوسعيد " (٧١٧هـ - ٧٣٦هـ/١٣١٧ - ١٣٣٦م)، وفى عهده تحسنت العلاقات بين المغول وسلطنة المماليك . وجنح بوسعيد إلى التقرب من الملك الناصر والصلح معه ، وقد استمر هذا الصلح وتلك العلاقات الطيبة بين الطرفين طوال عهد بوسعيد حتى وفاته سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٦م .

وكان من أكبر الدلائل على ما حدث من تقارب ين سلطنة المماليك والمغول تلك المصاهرة التى تمت بين الناصر محمد وأبى سعيد ، فقد تزوج الناصر محمد من الأميرة المغولية طلنباى حفيدة جنكيز خان سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م(٣) .

وبوفاة بوسعيد دب الاضمحلال فى دولة مغول فارس والعراق ، فاضطربت أحوالها وانقسمت فيما بينها وسادها التمزق والانحلال ؛ ورغم

(١) ابن كثير : البداية ، جـ١٤ ، ص٦٩ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص٢٣٩ .

(٣) عن تفاصيل هذا الزواج ، انظر : المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ص٢٠٣-٢٠٥ .

هذه الحالة السيئة التى عاشتها الدولة احترمت حكومة الملك الناصر تعهداتها مع المغول ولم تقم بمحاربتها وانصرفت عن الحرب إلى إصلاح أحوال البلاد. وفى نفس الوقت استمرت علاقة دولة الناصر محمد الطيبة مع مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) ، استمراراً للعلاقة الطيبة التقليدية بين هذه الدولة ودولة المماليك . وقد لقيت دولة مغول القبجاق نهايتها على يد تيمورلنك فى أواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى .

جهاد سلاطين المماليك الجراكسة ضد المغول ودور العلماء والفقهاء فيه :

شهدت الدولة المملوكية البرجية (المماليك الجراكسة) هجمات المغول التتار بقيادة زعيمهم تيمورلنك(١) وتصدت لها ، كما تصدى المماليك البحرية للموجة الأولى للمغول التى قادها ضد بلاد العالم الإسلامى هولاكو قائد مليكهم جنكيز خان . وقد داهم المغول دولة المماليك الجراكسة منذ قيامها ، فى عهد أول سلاطينها " برقوق " ، كما داهم خطرهم دولة البحرية عند قيامها فى عهد أول سلاطينها عز الدين أيبك .

وكان تيمور لنك (٧١٦ - ٨٠٧هـ) حاكماً لسمرقند فى إقليم ما وراء النهر ، واستطاع أن يضم إليه أقاليم : خوارزم وشمال فارس وأذربيجان وجورجيا ، كذلك استطاع أن يقض على دولة المغول القبجاق(القبيلة الذهبية)، ووصلت هجماته إلى بلاد العراق والشام . ولقد صحب حملات هولاكو الدمار والخراب والقتل والإبادة والإحراق ؛ الأمر الذى أفزع الناس وأصابهم بالهلع والخوف وجعلهم يهربون من أمام قواته خوف الوقوع فى يديه .

---

(١) عن تيمورلنك انظر : ابن عربشاه : عجائب المقدور فى غرائب تيمور ، مصر ١٢٨٥ ، ص٤٩ ، المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ص٥٤٢ .

واستولت قوات تيمورلنك على الرها من بلاد الشام(٧٨٩هـ/١٣٨٧م) وقامت بتخريبها(١) ، وهاجمت تلك القوات مدينة ملطية . ولم يلبث حكام ماردين وبغداد وغيرها أن كتبوا إلى السلطان برقوق يستنجدون به لينقذهم من الخطر المغولى الجديد . فأرسل برقوق حملة فى نفس العام قصدت حلب وديار بكر والتقت هنالك بجزء من قوات تيمورلنك وهزمتها ، وكان مرد هذا النصر إلى انشغال تيمورلنك آنذاك بحربه مع مغول القبجاق فى حوض نهر الفولجا وانشغاله بفتوحه فى الهند .

وبعد أن أنهى تيمورلنك حربه فى تلك المناطق توجه لمحاربة مصر المملوكية ؛ فأرسل سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٥م رسالة إلى برقوق تحمل نفس التهديد الذى حملته رسالة هولاكو إلى قطز من قبل(٢) ، فرد عليه برقوق برسالة تحمل التحدى وتعلن الاستعداد للحرب والنزال(٣) .

ولقد ترجم برقوق كلامه بالعمل إذ جهز جيشه فى العام التالى وخرج على رأسه إلى بلاد الشام متوجهاً إلى حلب لملاقاة التتار ، غير أن برقوق اكتشف أن تيمورلنك قد عاد إلى بلاده بسبب بعض المشاكل التى حدثت هناك وتطلبت عودته ، فرجع برقوق بقواته إلى مصر دون قتال ، وتأجل بذلك اللقاء والنزال(٤) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١١ ، ٢٤٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ص٧٩١ ، سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص ١٥٩ .

(٣) نص الرسالة فى (المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ص٨٠٥ – ٨٠٧) .

(٤) سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص١٥٩ .

توفى السلطان برقوق سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م(١) ، وخلفه من بعده ابنه الناصر ناصر الدين فرج (٨٠١ - ٨٠٨هـ/١٣٩٩ - ١٤١٢م) ، الذى واجه الغزو التترى ؛ ففى السنة التالية لتوليه أمر السلطنة قاد تيمورلنك حملة كبرى من رجال التتار واتجه بها نحو العراق فهزم قواتها وغزى بلادها . ثم تابع تيمورلنك زحفه على بلاد الشام واستولى على مرعش ، وتقدم ، بعد ذلك، إلى حلب ، وأباد الحامية المصرية التى كانت ترابط فيها(٢) ، ثم استولى على المدينة ونهبتها قواته واستباحتها لمدة شهر كامل(٣) .

ووصلت أخبار هجمات تيمورلنك إلى مصر ونجاح هذه الهجمات ووصف أعمال العنف والدمار التى صاحبتها ، ففزع الناس وخافوا وهرب الكثير منهم إلى الصعيد ولجأ العامة إلى العلماء والفقهاء يطلبون الدعاء والشفاعة عند الله حتى يمنع عنهم هذا البلاء ويزيحه عن البلاد .

وبعد أن استولى تيمورلنك على حلب تقدم منها إلى حمص فاستولى عليها ، ثم استولى على بعلبك ، واتجه شاقاً طريقه سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م إلى دمشق . ومما يجدر ذكره هنا ، أن تيمورلنك ، قبل مغادرته حلب ، عقد مجلساً جمع فيه علماء وفقهاء حلب الذين أسرهم وسألهم عن قتاله بقوله : "بالأمس قُتل مناومنكم ، فمن الشهيد قتيلنا أم قتيلكم ؟ " وطلب منهم أن يجيب

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٢ ، ص١٠٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ١٢ ، ص٢٢٣ - ٢٢٥ .

(٣) " وعمل تيمور من رؤوس المسلمين منائر عدة مرتفعة عن الأرض نحو عشرة أذرع فى دور عشرين ذراعاً حُسب ما فيها من رؤوس بنى آدم فكان زيادة على عشرين ألف رأس " (ابن تغرى بردى ، ص٢٢٥) .

أفضلهم وأعلمهم علـى سؤاله ، فرشـحوا لـه محب الديـن محمد بن الشحنة القاضى الحنفى للرد على سؤاله قـائلين لـه : " هـذا شيخنا ومعلم هـذه البلاد ومفتيها " فأجابه ابن الشحنة إجابة تدل على علمـه وذكائـه إذ قال لـه : "سئل رسول الله ﷺ عن هذا فقال من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو الشـهيد" فأعجبت هذه الإجابة تيمورلنك وتابع حديثه معهم " فطلبـوا منـه أن يعفو عن أهل حلب وأن يوقف القتل فيهم ، فأمنهم وحلف لهم فحصل بذلك بعض رفـق بالنسبة إلى غيرهم "(١) .

ولماً علم الناس فى مصر بما حل بـأهل البلاد الشـامية علـى يد قوات تيمورلنك ، أمر الناصر فرج بأن يُنادى فى البلاد للجهـاد ، لـذا خـرج الفقهـاء والعلماء ، وعلى رأسهم شيخ الإسـلام سـراج الديـن عمـر البلقينـى ، وقضـاة القضاة وبعض الأمراء ونودى فـى شـوارع القـاهرة للجهـاد بـالقول " الجهاد الجهاد فى سبيل الله لعدوكم الأكبر تيمورلنك فإنه أخذ البلاد ووصل إلى حلب وقتل الأطفـال علـى صـدور الأمهـات ، وأخـرب الـدور والجوامـع والمسـاجد وجعلها إسطبلات للدواب وإنه قاصدكم يخرب بلادكم ويقتل رجالكم "(٢) .

ولماً اكتمل تجهيز الجيش خرج السلطان الناصر فرج مـن مصـر علـى رأس هذا الجيش فى ربيع الآخر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ، واصطحـب معـه الخليفـة العباسى محمد المتوكل والقضاة والعلماء وسـائر الأمـراء . ووصـل السـلطان

(١) ابن عربشاه : عجائب المقدور ، ص٩٦ – ٩٨ .

(٢) ابن تغرى بردى :النجوم ، جـ١٢ ، ص٢٢٨ ، ٢٢٩ ، المقريزى : السـلوك ، جـ٣ ، ١٠٣٦ .

وجيشه إلى دمشق وعسكر خارجها ، والتقت هنالك بقوات التتار ولقت هزيمة كبيرة ، فما كان من السلطان فرج إلا أن طلب الصلح وعاد بفلول جيشه المنهزمة إلى مصر .

وكانت هذه الهزيمة التى وقعت بجيش السلطان صدمة قوية لأهل دمشق وللعساكر الشامية المتجمعة بها ، ولكنهم ، رغم ذلك ، تصرفوا بشجاعة فائقة وقاموا بإغلاق أبواب مدينتهم إغلاقاً جيداً ، واعتلوا أسوارها وأصروا على رد العدو . ولماً زحف عليهم تيمورلنك بقواته قاتلوه من داخل حصونهم قتالاً شديداً واستطاعوا رده عنها ، ونجحوا فى أسر عدد من رجاله وقتل عدد كبير منهم(١) .

وإزاء هذه المقاومة الشديدة لجأ تيمورلنك إلى الخديعة فى فتح المدينة بعد أن امتنعت عليه فأعطى لأهلها الأمان إذا هم لم يقاتلوه وتصالحوا معه . لهذا اجتمع أهل دمشق للتشاور فى أمر الصلح ، ووقع اختيارهم على إرسال قاضى القضاة تقى الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلى(٢) ، للتحدث مع تيمورلنك فى هذا الخصوص . وصحب ابن مفلح جماعة من علماء دمشق وفقهائها ، واجتمعوا بتيمورلنك الذى نجح بدهائه أن يقنعهم بحسن نيته وذلك حين قال لهم : " هذه بلدة الأنبياء ، وقد اعتقتها لرسول الله ﷺ صدقة عن أولادى " . فانخدع ابن مفلح والعلماء والفقهاء بهذا القول ، ووافقوا على الصلح . ولماً تم له ذلك وفتحت له المدينة أبوابها ، نقض تيمورلنك أمانه

---

(١) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ، ص٢٣٨ ، المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٤٦ .

(٢) ابن تغرى بردى / ص٢٣٨ ، ٢٣٩ ، المقريزى ، ص١٠٤٦ .

للعلماء والفقهاء وقبض على ابن مفلح وأصحابه وأقام مذبحة فى دمشق قتل فيها نحو عشرة آلاف من أطفال المسلمين ، كذلك قام بسبى نساء المدينة ، وقام بتجميع صناعها وأرباب الحرف فيها وقام بترحيلهم إلى سمرقند ليسخرهم هنالك فى مشروعاته . وفرض تيمورلنك على أهل دمشق الأموال الطائلة جزاء مقاومة أهلها له واستبسالهم فى الدفاع عن مدينتهم و استباح جنوده المدينة مدة تسعة عشر يوماً ، ثم اضرموا النار فيها ، لمدة ثلاثة أيام ظلت مشتعلة حتى أتت عليها كلها(١) .

ومن الجدير بالذكر أن الفقهاء والعلماء الذين وقعوا فى أسر تيمورلنك تعرضوا لأشد ألوان العذاب ، بسبب قيادتهم للناس فى الجهاد ضد المغول . ويؤكد ذلك ما ذكره المقريزى عن هذا التعذيب الذى وقع على العلماء والفقهاء ومن بينهم قاضى القضاة صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوى الشافعى ، الذى مات من أثر تعذيبه فى الأسر ، أثناء حديثه عن وفيات عام ٨٠٣هـ(٢) .

ولقد ترك تيمورلنك الشام ، بعد أن أقام فيها غازياً ومخرباً ، مدة ثمانين يوماً ، عائداً إلى بلاده لإقرار الأمور فيها . وفى طريق عودته تعرض لجيش " بايزيد العثمانى " فهزمه بالقرب من أنقرة ٨٠٤هـ/١٤٠١م ، ثم قفل عائداً إلى سمرقند حيث وافاه الأجل هناك سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م(٣) .

وبوفاة تيمورلنك تنفست بلاد المسلمين الصعداء من خطر التتار ، وذلك لأن التقسيم والتمزق أصاب دولته من بعده ، الأمر الذى أدى إلى ضعف قوة

---

(١) المقريزى :السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٥١ .

(٢) السلوك ، جـ٣ ، ص١٠٧٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١٣ ، ص١٦٠ - ١٦٣ .

التتار بسبب النزاع الذى وقع بين أبنائه وأحفاده والصراع بينهم على تولى السلطة ، فلم يقوموا بعد ذلك بأى هجوم على بلاد الإسلام ، وتفرغ المغول لمواجهة مشاكلهم الداخلية والاستقرار فى البلاد التى خلصت لهم والتعايش مع أهلها وسكانها .

وفى ختام بحثنا هذا نستطيع أن نجمل الدور الذى قام به الفقهاء والعلماء فى الجهاد الإسلامى ضد الخطر المغولى فى النقاط التالية :

أولاً : أنهم حَملوا على أكتافهم عبء مسئولية تعبئة المسلمين للجهاد ، وذلك بدعوة الناس إلى الجهاد فى سبيل الله وترغيبهم فيه وفى الإنفاق لتجهيز الجيوش .

ثانياً : قاموا برفع الروح المعنوية للجنود والأهالى المرابطين وشجعوهم على الصمود والتصدى دفاعاً عن أعراضهم وأوطانهم .

ثالثاً : تقديمهم الفتوى الشرعية الصحيحة للسلاطين والحكام فى بعض الأمور الهامة التى تتعلق بالجهاد والإنفاق على القوات .

رابعاً : حملهم السلاح والمشاركة الفعلية فى القتال والتزامهم بالتواجد فى الصفوف الأمامية واستشهاد بعضهم بعد إبداء الشجاعة الفائقة فى القتال.

خامساً : القيام بالوعظ والإرشاد والتدريب على السلاح فى المدارس لعامة الشعب بهدف تكوين فرق شعبية تحمى الجبهة الداخلية من خطر أى هجوم مباغت على مدن المسلمين .

سادساً : مواجهة السلاطين بقوة وحزم وحثهم على الخروج لملاقاة المغول حين وجدوا تقاعساً من بعض هؤلاء السلاطين وخوفاً على عروشهم ،

فكان لمواجهتهم التأثير الفعال فى إسراع هؤلاء السلاطين فى قيادة جيوشهم للتصدى لخطر المغول .

وهكذا شاركت هذه الصفوة المختارة فى الجهاد ضد الخطر المغولى على البلاد الإسلامية ولم يتوقف عطاؤها فى كافة المجالات خلال فترة الصراع الطويلة بين المسلمين والمغول ، وبين الحق والباطل .

المصادر والمراجع

(أ) المصادر :

- **ابن الأثير** : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٧٩ .
- **ابن أيبك الدوادار** : كنز الدرر وجامع الغرر ، القاهرة ١٩٧١ .
- **بيبرس الدوادار** : زبدة الفكرة فى تاريخ لهجرة ، جـ٩ ، مخطوطة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨ .
- **ابن تغرى بردى** (أبو المحاسن) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٧٢ .
- **ابن حبيب** : تذكرة النبيه فى أيام المنصورة وبنيه ، القاهرة ١٩٧٦ . ١٩٨٦ .
- **ابن خلكان** : وفيات الأعيان ، بيروت ١٩٧٢ – ١٩٧٧ .
- **الذهبى** : دول الإسلام ، القاهرة (د . ت) .
- **السبكى** : طبقات الشافعية الكبرى ، القاهرة ١٩٦٤ – ١٩٧١ .
- **السيوطى** : تاريخ الخلفاء ، القاهرة ١٩٦٩ .
- **أبو شامة** : الذيل على الروضتين ، بيروت ١٩٧٤ .
- **ابن عبد الظاهر** : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، القاهرة ١٩٦١ .
- **ابن العبرى** (جريجوريوس الملطى) : تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٩٥٨.
- **ابن عربشاه** : عجائب المقدور فى أخبار تيمور ، مصر ١٢٨٥هـ .
- **ابن العماد الحنبلى** : شذرات الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، القاهرة ١٣٥١هـ .
- **العينى** : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، القاهرة ١٩٨٧ – ١٩٩٢.

- **أبو الفدا** : المختصر فى أخبار البشر ، بيروت (د . ت) .
- **القلقشندى** : صبح الأعشى ، القاهرة ١٩١٠ - ١٩٢٠ .
- **ابن كثير** : البداية والنهاية ، بيروت ١٩٨٧ .
- **المقريزى** : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٥٨ ، ١٩٧٠ - ١٩٧٢ .
- **الهمذانى** : جامع التواريخ ، ترجمة عبد المعطى الصياد ، القاهرة ١٩٦٠ .
- **ابن واصل** : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٧ ، ١٩٧٢ - ١٩٧٧ .
- **يا قوت الحموى** : معجم البلدان ، بيروت ١٩٨٦ .
- **اليونينى** : ذيل مرآة الزمان ، الهند ١٩٦١ .

(ب) المراجع :

- **إبراهيم طرخان** : عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠ .
- **أحمد مختار العبادى** : قيام دولة المماليك فى مصر والشام ، بيروت ١٩٦٩.
- **حافظ حمدى** : الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة (د . ت) .
- **رنسيمان** : تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العرينى ، بيروت ١٩٦٧ .
- **سعيد عبد الفتاح عاشور** : العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٦٥ .
- **السيد الباز العرينى** : المغول ، بيروت ١٩٨١ .
- **فؤاد عبد المعطى الصياد** : المغول فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٠ .
- **محمد يوسف موسى** : ابن تيمية ، سلسلة أعلام العرب (العدد الخامس) .

(جـ) المراجع الأجنبية :

- Ahmed Derrag: L'Egypte sous le régne de Barsbay.

- Cambridge Medieval History, (Mongols).

- Howorth, Sir Henry:

History of the Mongols, London 1876-1888.

- King, G:

The Knights Hospitallers in the Holy Land, London 1931.

- Lane Poole, Stanely:

History of Egypt in the Middle Ages, London 1912.

- Wiet, G:

L'Egypte Arabe, t. IV, Paris 1937.